العجيلي

بين الرؤية والرؤيا

بقلم جورج طرابيشي

لنتصور انفسنا في بلدة صغيرة على تخوم البادية السورية ، ليس لنا ما نسلي به انفسنا او نزدرد به الوقت غير اصائل وامسيات رطبة الظل ندية النسمات ، نقضيها مجتمعين في مقهى صغير ، نتبادل اطراف الحديث ، ويقص كل منا على الباقين ذكريات حياته الماضية في مدن كبيرة يكسبها بعدها عن البلدة الصغيرة التي نحن فيها سحرا ليس لها وحنينا لم يكن بنا اليها . ويشاء لنا حظنا السعيد ان يضم مجلسنا الصغير زميلا جديدا في جعبته ذخيرة لا تنفد من حكايات واقاصيص نبل بها ظمانا الصادي في الجفاف الصحراوي . وما كانت حكايات واقاصيص الزميل تلك ؟ طريفة ؟ لا شك في ذلك. شيقة ؟ مؤكد . فيها قسوة احيانا ، ولكن فيها ايضا دعوة الى الرحيل الى عوالم مجهولة والى اجتياب آفاق ما كنا لنحلم بارتيادها في ذلك السجن الضيق الذي ساقتنا اليه اقدار الحياة ، بلدتنا الصحراوية الصغيرة . كانت جلسات هادئة ، تبدأ بهدوء وتنفض بهدوء ، لا يعكر صفوها ـ ان جاز لنا استعمال هذا المجاز ـ غير ومضات القلق او الارهاص او التوجس التي كانت تبعثها فينا حكايات ذلك الزميل من حين الى حين . اقول ومضات ، وانا اعني ما اقول. هل نظرتم الى السماء الصافية الاديم في ايام الربيع القلتب كيف تتلبد على حين غرة بالغيوم وترعد وتهطل مدرارا وكأن ابوابها قد انفتحت فسالت ميازيب ؟! ارايتم الى الناس وقد دب في نفوسهم شيء من القلق والخوف المبهم كلما دوت الارض من حولهم بهدير صاعقة عنيفة ترتجف لها آثار العمران وتنشر من حولها رائحة الحريق؟ ولكن ما هي الا ثوان حتى تنقشع الجحافل السود عن صفحة السماء فتعود كما كانت زرقاء صافية تلمع فيها الشمس حارة حادة تجذب اليها البخار المتصاعد من الارض التي تعود في مثل لمح البصر جافة يابسة وكأن شيئا لم يكن . هي مزنة عارضة ليس لها ما قبلها وما بعدها ، ولكنها في اللحظة التي انشقت عنها السماء لتسفح الارض بوابلها خلفت في النفوس شيئا هو اقرب الى التوجس والخوف . من يدرينا ان تلك المزنة العارضة برعدها وبرقها وصواعقها ما كانت تحمل الموت الزؤام لآدمي ضل طريقه في سبسب قفر اجرد ؟ بل من يدرينا ان الصدفة لن تشاء لنا ان نكون نحن ، انا او انت ، ذلك الآدمي التائه ؟ ولكنها مع ذلك مزنة عارضة ، انطوت صفحة الخوف بانطوائها ، وانستنا زرقة السماء الربيعية بعدها ما اعتورنا من هواجس وتوجسات ونحن نرقب حريق الغيوم وهدير الزمازم كاشارات ضوئية وصوتية متسربلة بالوعيد من عالم مجهول غامض ما كادت تنفتح لنا عليه كوة او مشكاة حتى عادت فانغلقت من جديد .

هكذا كانت تفعل بنا حكايات ذلك الزميل في مقهانا الصغير في بلدتنا الصغيرة المطمئنة . كنا نحبها على الرغم من الرعدة التي كانت تبعثها في اوصالنا ، بل ربما بسبب تلك الرعدة . وليس أحب الى النفس من قشعريرة الخوف عندما تتمكن ذلاقة لسان محدثك من تغليفها ، بل قل تطهيرها برعشة جمالية غامرة . وليس أحب الى النفس من عوالم غامضة شيقة محفوفة بأهوال لا يمكن التنبؤ بها تنفتح لها عندما تكون هذه النفس على ثقة من ان الامر لا يعدو ان يكون اكثر من حكاية تفننت ذلاقة الراوي في اخراجها وفي خلق الاجواء التي تجعلها قابلة للتصديق في لحظة من اللحظات لا اكثر .

هذا الزميل الذي رطب جفاف أحاسيسنا لم يكن بالشاعر وان كان له ديوان من الشعر .

ولم يكن بالروائي وان كانت له رواية طويلة .

ولم يكن بالقاص وان كانت له ست مجموعات من القصص .

ولم يكن بالحكواتي وان كانت له حكايات في الرحلات وغير الرحلات .

هذا الزميل لا اجد له من وصف غير انه كان راوية من الطراز الاول . وقد يفوق الراوية احيانا في مراقي الفن الشاعر والروائي والقاص ، كما برهنت على ذلك منذ الف عام شهرزاد واحاديثها المباحة الا في الصباح .

ولكن هذا الزميل مع الاسف ليس له وجود ، وانما تخيلته معكم وتخيلتموه معي على ما ارجو لنستطيع عن طريقه ان نتخيل او نكوّن فكرة عن ذلك الراوية الرفيع الطراز الذي هو الدكتور عبد السلام العجيلي .

لقد اصدر الدكتور عبد السلام العجيلي حتى الان ست مجموعات قصصية هي على التوالي : «بنت الساحرة» ١٩٤٨ ، «ساعة الملازم» ١٩٥١ ، «قناديل اشبيلية» ١٩٥٦ ، «الحب والنفس» ١٩٥٩ ، «الحائن» ١٩٦٠ ، و«الخيل والنساء» ١٩٦٥ . هذا بالاضافة الى رواية طويلة وقصة طويلة وديوان شعر وكتابين في الرحلات ومجموعات مقامات ومجموعة خواطر ومقالات . ولئن كنا سنولي اهتمامنا هنا مجموعاته القصصية وحدها ، فهذا لان فن العجيلي كراوية يتجلى بأمتع صوره واكثف دفقاته في هذه القصص التي يجمعها على كثرتها وتعدد مضامينها خيط واحد او قل رؤيا واحدة الى اشياء الوجود والحياة ، واكاد اقول الكون ايضا . وعندما تكون الرؤيا واحدة

ـ شانها عند كل كاتب اصيل ، والعجيلي كاتب اصيل ـ فانها لا بد ان تكون بالضرورة شخصية ، متمايزة ، شفافة عن خصوصية، الرائي في كل لوحة من لوحاتها ، وفي كل اشراقة من اشراقاتها .

ونحن نقول عن رؤيا العجيلي انها واحدة لانها تنطلق من منبع واحد لتنتهي الى مصب واحد مهما تباينت التضاريس وتنوعت التعاريج وكثرت او قلت الالتواءات في مسارها . ونحن نقول انها شخصية ، متمايزة ، لان وجه العجيلي يطل علينا منها رائقا، متفردا، ذا قسمات واضحة محددة لا تشبه من قريب او بعيد قسمات اي وجه اخر من وجوه الادب العربي الحديث .

ورؤيا العجيلي تبدأ مسارها من «بنت الساحرة» . ولنحدد قبل كل شيء اننا آثرنا عن عمد كلمة «رؤيا» على «رؤية» لما في الاولى من ايحاءات ميتافيزيقية ، ما فوق واقعية ، لا تنطوي عليها كلمة «رؤية» بجرسها المادي ، العلمي ، الفيزيقي . ولعله يجدر بنا حتى نفهم طبيعة التعارض الذي نريد ان نقيمه بين «رؤيا» و«رؤية» ان نشير الى ان القصص العشر التي تضمها مجموعة «بنت الساحرة» هي كلها قصص علمية ، وعلى وجه التحديد طبية ، ابطالها اطباء او مرضى، ادواء او ادوية ، ومع ذلك فانها ابعد ما تكون في روحها عن الحتمية او السببية العلمية التي تريد ان تجد لكل سبب مسببا يقع تحت اللمس والنظر ، ويمكن للعقل سبره واختباره . ولان قصص «بنت الساحرة» العلمية لا تخضع لقانون العلم والسببية ، ولانها تحاول على العكس ان تثبت عجز هذا القانون او افلاسه او نقصه ، لذا فان كلمة «رؤيا» هي التي تفرض نفسها بديلا عن «الرؤية» ، بل نقيضا لها .

والرؤيا لا تأخذ أبعادها كاملة ومدلولاتها تامة ، وهي بالضرورة ابعاد لا محدودة ومدلولات متمردة على كل تقنين ، الا اذا قورنت بالرؤية بأبعادها المحدودة ومدلولاتها المقننة التي ليس فيها سر او ما وراء . ولعل هذا ما حدا بالعجيلي الى ان يفتتح باكورة اعماله ، «بنت الساحرة» ، بقصة «قطرات دم» التي تحدد بعبارات صريحة مباشرة الكيفية التي تم بها الانتقال من الرؤية الى الرؤيا . ومن الاسطر الاولى للقصة تتحدد طبيعة الرؤية : «كنت في سنة ... طبيبا داخليا في مستشفى المعهد الطبي ... ولم اكن حتى عامي ذاك، وحتى فترة من الزمن بعده ، الا الطالب المجد الذي يعتقد ان دفاتره وكتبه قد حوت جماع حقائق الوجود احيانا ، وزبدة تلك الحقائق احيانا اخر . وكانت كل مشاكل الحياة عندي قد قيل فيها القول الفصل على شبا اقلام فطاحل من العلماء ... فما كنت اقف عند معضلة من معضلات وجود الانسان الا واجد حلها فيما قاله اولئك الفطاحل وتلاميذهم . نعم ، كنت افكر احيانا وذلك حين كنت اتكلف تذكر ما غاب عني من اسماء الكتب وأرقام الصفحات . وكنت اجهد فكري احيانا اخر ، وذلك حين كنت استعير ما ندّ عن ذهني من اقوال اساتذتي الذين ـعلى ما احسب ـ كانوا مثلي في الاطمئنان الى انكشاف حقائق الكون انكشافا تاما حاسما تحت عدسات مجاهر البحاث وضربات مشارط المجربين ... وهكذا لم اكن لاجد في الجسم الانساني بعد ان قرأت الطب واتقنت حفظ مبادئه من الاسرار ما كنت اظنه حافلا بها قبل ان افعل . ولم اكن لأحس ان في ذلك الجسم في صحته ومرضه من الهيبة والرهبة ما يحسه الجهلاء من الناس وعامة المتعلمين الذين لم يطلعوا على ما اطلعت عليه ، ولم يتقنوا من الحفظ ما اتقنت . فقد كنت ارى ما دق وجل من وقائع الحياة الحيوانية واضح الرؤية تارة بعيني ، وتارة بعين المجهر ، وتارات اخرى بعين الكتب المترجمة عن اناس هم اقوى مني واغنى . ولذلك فهم ادق رؤية واعلم. فالحياة عندهم وعندي هي تكاتف بسيط في العمل بين ملايين الخلايا التي تزخر بها بنية الحيوان . والمرض هو سطوة الجراثيم على الخلية ، او هو تأثرها من السموم ، او هو تزعزع الاخلاط في البنية الصحيحة واختلال الاعصاب . وان لم يكن هذا ولا ذاك فهو اضطراب الغدد الصم وتكرر مفرزاتها . وكل هذه الحقائق كانت تثبتها وقائع الحياة والموت اليومية التي كنا نراها رأي العين في مستشفانا وعياداته . فقد كان المرضى يشفون طبقا لنظريات العلماء واقوال الاساتذة ، كما كانوا يموتون احيانا طبقا لتلك النظريات والاقوال . وفي الحالين كنت مستريح الضمير مطمئنا الى ان ما حدث لا بد ان يحدث ، وأن ليس فيه سر ولا لبس ولا ابهام . وبمثل هذا الضمير المستريح المطمئن استقبلت جريحة منتصف ليل ١٥ تشرين من ذلك العام ، فعالجتها ليلتئذ وقمت لها بما لم يكن من القيام به بد من الاسعاف والتدبير والمداواة» (١) .

واذا اردنا ان نعرف من هي جريحة منتصف الليل تلك ، فلنقل باختصار انها امراة جميلة ، ناصعة البشرة ، اراد لها اهلها الزواج من شيخ ثري فهربت منه الى ذراعي ضابط اجنبي من غير دينها تزوجها وقضى معها عاما ونصف عام ثم غادرها الى صقع بعيد ولم يترك لها من آثاره «سوى خاتم في احد اصابع يديها لم ينقذها من سكين اخيها الذي عثر بها ذات ليلة خارجة من دار السينما ، متبرجة سافرة ضاحكة» فانهال عليها طعنا الى ان ظنها قد فارقت الروح ، وما كانت قد فارقتها فنقلت الى المستشفى حيث اسعفها الطبيب المناوب بأن نقل اليها بعضا من دمه .

ولكن طعينة منتصف الليل هي ايضا المرأة التي زلزلت اركان «رؤية» الطبيب المناوب وجعلته يستسلم لاجنحة «الرؤيا» الشفافة المرفرفة في عوالم شبه سحرية لم يقيض دخولها الا لمن تجرد من سلاح العلم والعقل القاصر . ولقد بدأت القصة كلها بمزحة اراد بها الطبيب ان يقنع الطعينة بأن الدم الذي نقله من عروقه الى عروقها لا بد ان يحدث في حياتها تغييرا قويا ، لأنه دم نبيل وعريق في النبل ، متحدر من قبيلة عربية شهيرة لم تعرف الهجنة ولا اختلاط الدماء . ولقد صدقت المرأة القصة ، فقطعت للطبيب عهدا بان تحتفظ دمه نقيا من الدنس ولو ضحت بسعادتها وبما هو اعظم من السعادة . ولقد راع الطبيب ان يلاحظ ان تبدلا فعليا قد راح يطرا عليها مع مر الايام . فقد اخذت تبتعد شيئا فشيئا عن الترف الذي عهدته في حياتها ، وراحت يدها تخشوشن ومحياها يزداد ذبولا ولكنه يزداد كذلك نبلا. وعندما رأى الطبيب المآل الجاد الذي آلت اليه مزحته عن «الدم النبيل» هم بان يصارحها بالحقيقة وبان يقول لها ان «هذا الدم الذي اكثر هواجسها ليس الا حفنة من ماء مزيج بآثار المعادن والدسم والزلال ، وأن ليس فيه من السر الذي يمتلك اللب او يغير من اسلوب الحياة وزن ذرة» . اجل اراد ان يقهقه ويقول لها ان «قطرات الدم التى وهبها اياها ذابت في يومها الاول ، فابتلع طحالها كرياتها، واختزن كبدها حديدها ، وطرحت كليتاها ماءها» . ولكنه اذ نظر في عينيها ورأى جسامة الوهم الذي شغل بالها ، آثر ان يحتفظ بحقيقته « العلمية » لنفسه وان يتركها في وهمها سادرة .

وكان ما لا بد ان يكون . فقد مضت شهور كاد ينسى فيها الطبيب المرأة الطعينة وأوهامها وهواجسها ، الى ان بلغه ذات يوم الخبر الذي لم يدر له حدوثه بخلد ، خبر انتحارها لعوامل «اعيت المحققين» . فمن المحققين من نسب اقدامها على الانتحار الى الفاقة، ومنهم من قال انه الحب اليائس . اما الحقيقة فان الطبيب هو وحده الذي عرفها ساعة استلم الرسالة التي كتبتها اليه المرأة يوم فارقت الحياة . كتبت تقول : «لقد جاهدت طويلا في صيانة وديعتك من الاذى ... وارى من الخير ان اترك الحياة وانا قوية على ما تريده فيّ من قوة النفس والخلق ... الم اقل لك اني صائنة دم اجدادك من الدنس ؟ وداعا » .

ولا اعتقد انه يصعب علينا بعد هذا ان نتخيل طبيعة التحول

(١) «بنت الساحرة» ـ منشورات دار مجلة الاديب ـ ص ٩ـ١٠

الذي طرأ على حياة الطبيب ومعتقداته ونظرته الى الحياة . تحول يجب الا يكون في طبيعته ادنى من التحول الذي طرأ على نفسية المرأة المنتحرة واخلاقها . ومثل هذا التحول لا يمكن ان يكون شيئا اخر غير الانتقال من الرؤية المزهوة بدقتها العلمية وتنبؤاتها الحتمية والواثقة ثقة مغرورة مطلقة بقوانينها التي تريد ان تقيم جسرا مباشرا بين الاسباب والمسببات ، الى الرؤيا التي تطمح الى ان ترى وراء المنظور البسيط المنظور المعقد ، ووراء الواقع ما فوق الواقع ، ووراء العالم ما بعد العالم ، ووراء قناع المادة «الوجه الاكبر» المتلثم بالف قناع اخر غير المادة . ولنترك للطبيب مهمة تلخيص هذا التحول :

«لبثت طويلا بعد تلك الايام اسائل نفسي وانا اتقلب بين الحزن وعذاب الضمير ، عن حلقة واهية في تلك القصة الغريبة اموه بها على ضميري ولكن عبثا كنت اتساءل . فلم يكن ثمة شك في ان سلمى قد قضت في ايلول ضحية الدماء التي انقذتها من الموت في تشرين. فهل هو الوهم الذي بلغ بها هذا المبلغ واوردها الموت ؟ ام ان الواقع كان يلعب في جسد سلمى على مسرح يجهله علمي الذي كنت اثق به، بل وينكره انكارا تاما ؟ أفكانت في تلك القطرات من الدم سوى الكريات البنية الاشكال والطباع ، وسوى المواد المعروفة الخواص والانواع ، عناصر من طبيعة مجهولة استطاعت ان تنقل الى جانب الغذاء والهواء الصفات الخلقية من نفس الى اخرى ؟ لقد اتعبت عقلي كثيرا في السؤال والتفكير والجواب ، وعلمت منذ غادرت قاعات الدرس قصور ما في الكتب عما في الحياة ، ولكني لم استطع ان اتناسى لحظة واحدة ان ايماني المطلق بالعلم قد جرني في حقبة من الزمن ، كما كان الجهل المطلق جديرا بان يجرني ، الى ان افتح امام روح شابة وجسم جميل ابواب الفناء . ان تلك هي مشكلة حياتي وندامتي الكبرى التي لم استطع ان اتحرر من وخزاتها حتى اليوم » (١) .

ولنأخذ على سبيل المثال ايضا قصة «انتقام محلول الكينا» . واعتقد ان عنوانها هو اول ما سيستوقفنا فيها . اذ يتضح من العنوان اننا هنا ايضا امام قصة علمية ، طبية على وجه التحديد . ولا ريب ان دراسة الدكتور العجيلي للطب كان لها تأثيرها البالغ في الجو الذي اختاره العجيلي اطارا لباكورة انتاجه . ولكن لا ريب ايضا في ان المفارقة بين «الرؤية و«الرؤيا» قد اتيح لها ان تكتسب بروزا خاصا في هذا النوع من القصص الذي تتولد فيه الرؤيا من الرؤية بالرغم يجب ان نقول بفضل مما بينهما من تعارض وتضاد . والعجيلي مدرك لهذه الحقيقة ، وهذا ما يجعله يؤكد في تقديمه لقصة «انتقام محلول الكينا» على لسان راويتها الدكتور عبد الله انها «قصة غريبة بزيد في غرابتها ان يتعرض لها بوجه خاص ابناء بيئة علمية لا شك بواقعيتها بعيدة جد البعد عن دنيا الخيالات والاوهام» (٢) . والقصة هي قصة طالبين في كلية الطب ، حافظ وشرف الدين ، ما كانا بالنجيبين ، ولكنهما كانا مثل شن وطبقة متلازمين لا يطيقان بعدا او فراقا . فاذا «غضب المعلم من احدهما ضرب الاخر ، وان قصر احدهما في درس التاريخ قصر الاخر في الجغرافية . رسبا مجتمعين في صفوف متعددة ونجحا مجتمعين» . ولم يكن ثمة ما يميزهما غير لؤم في طبع الاول ، حافظ ، وغير طيبة قلب شرف الدين . وقد اشتهر امرهما بين رفاقهما في الكلية ، فاطلقوا عليهما لقب «الزوج». ولقد ظل «الزوج» هكذا طيلة «سنين اربع من دراستهما الجامعية لم يقو ظرف او حادث على ان يفصم عروة اتحادهما الغريب هذا» الى ان عرفا غانية بسيطة التفكير ، لطيفة ، احبتهما زوجا كما وجدتهما وكان لها من رضى النفس ولين العريكة ما حال دون تحطم العروة بينهما في تنافسهما على قلب تلك المرأة . ولكن الشيء الذي ما كان ينتظره احد هو ما حدث في نهاية السنة الجامعية الرابعة حين افترق الزوج على اثر اجتياز حافظ الامتحان الاكمالي ورسوب شرف الدين فيه . وقد رسب هذا الاخير عندما وجه اليه الفاحص السؤال التالي: «امامك محلولان من محاليل الكينا احدهما تعرض منذ ثماني واربعين ساعة الى غبار ملوث بالجراثيم والاخر تعرض الى ذلك الغبار منذ خمس دقائق ، واضطررت الى حقن مريضك المصاب بالملاريا بواحد منهما على حاله قبل ان يتاح لك تعقيمه بالحرارة ، فايهما تفضل ؟ اما جواب شرف الدين فكان الجواب المغلوط اذ فضل المحلول الثاني الذي لم يتلوث بالغبار الا منذ دقائق خمس ، ولم يدر بخلده ما قصده الفاحص من التنبه الى ان محلول الكينا قاتل للجراثيم بنفسه اذا بقيت فيه مدة معينة من الزمن ، وبهذا يكون المحلول الذي تعرض منذ اسبوع للغبار الحامل للجراثيم قد تعقم وطهر في هذه المدة في حين ان المحلول الاخر لم يتح له الوقت الكافي لذلك» .

وما ان رسب شرف الدين حتى اصبح حال الزوج بعد هذا الرسوب ، كما يحدثنا راوية القصة ، حال ذلك الشاعر القديم حين قال :

فلما تفرقنا كاني ومالكا لطول اجتماع لم نبت ليلة معا

ومع الافتراق برز لؤم حافظ ، فقد استأثر لنفسه بلطفية ، وصار يسخر من صاحبه ويتعالى عليه . وقد تألم شرف الدين لذلك مريرا الالم ، فانطوى على نفسه ، وسيطرت عليه نزوة عدوانية فصار يتطاول على زملائه واساتذته بالكلام والسباب، فما كان من هؤلاء الا ان حكموا عليه بانه حاد عن جادة الصواب وجن ... وبالفعل جن شرف الدين واستقر به المطاف في مستشفى المجانين في ضاحية من دمشق .

ومضت الاعوام وتخرجت دفعة شرف الدين اطباء توزعوا في مشارق الارض ومغاربها . وشاءت الصدف ان تجمع بين راوية القصة الدكتور عبد الله وبين الدكتور حافظ في منطقة واحدة تقع على تخوم البادية السورية . وقد بلغ الدكتور عبد الله من اخبار حافظ ما ساءه ، ولاسيما شكوى مرضاه من قلة درايته ، ولكنه كان يلتمس له العذر بانه طبيب مبتدىء ، وكان يطمئنه عليه ان «منطقة عمله لا تحتاج الى كثير علم او طويل دربة ، فهي منطقة مرزغية قد استوطنتها الملاريا فلا مريض فيها الا من يشكو نوبات البرداء وضخامة الطحال، وهذا نعيم الطبيب المبتدىء اذ يكثر فيه عمله وتقل اخطاؤه» .

وحدث ما كان لا بد ان يحدث . جاء سبعة من المرضى بالبرداء الى الدكتور حافظ طالبين اليه حقنهم بالكينا . وكان لديه قارورتان من محلول الكينا وكان يشك في تلوث احداهما لان خادم المستوصف تركها مفتوحة اثناء كنسه الغرفة منذ اسبوع ، فعزلها على ان يطهرها متى احتاج اليها ، وفتح القارورة الطاهرة ليحقن منها المرضى السبعة. ولكن ضوضاء عنيفة صادرة عن متشاجرين عند باب المستوصف اضطرته للخروج لتهدئتهم ، وعاد بعد خمس دقائق ليحقن المرضى من القارورة التي ظلت مفتوحة اثناء غيابه ، فكان ان قضى السبعة نحبهم بسبب تلوث المحلول وبسبب خطيئة الدكتور حافظ الذي غاب عن ذهنه ان محلول الكينا يملك القدرة على قتل الجراثيم اذا بقيت فيه مدة طويلة من الزمن والذي كان عليه بالتالي ان يحقن مرضاه بالقارورة التي تلوثت قبل اسبوع .

ويبدو ان موت المرضى السبعة اثر تأثيرا شديدا على اعصاب الدكتور حافظ ، فحاول الانتحار ، ثم خانته اعصابه نهائيا فجن ولحق بصاحبه في مستشفى الامراض العقلية . وعادا متلازمين كما كانا، قد زالت بينهما كل الحواجز حتى حاجز العقل .

وكان الامر الى هنا غريبة من غرائب المصادفات ، على حد تعبير الدكتور عبد الله ، راوية القصة . ولكن الصدفة ايضا شاءت للدكتور عبد الله ان يلتقي بعد بضع سنوات بلطفية ، الفانية التي هام بها

---

(١) المصدر نفسه ـ ص ١٨ .
(٢) المصدر نفسه ـ ص ٩١ .

«الزوج» ايام الدراسة الجامعية ، فروت للدكتور عبد الله الشطر الناقص من القصة . قالت :

ـ بعد ان سقط شرف الدين في صفه لحقت حافظ وعشت معه في بيته ... وقد اراد مرة ان يبين لي قدري عنده فقال لي انه في سبيلي ضحى بصديقه الصدوق شرف‌الدين ، وذلك يوم الامتحان عندما وجه الفاحص الى شرف‌الدين سؤالا كان يجهله هذا الاخير ، فالتفت الى حافظ يستنجده ، فاغتنم هذا فرصة ذهل فيها الفاحص واعطاه الجواب المغلوط عن عمد وتصميم . كان السؤال يتعلق بقشر الكينا او حب الكينا ، لا اعرف !

وهكذا انتقم محلول الكينا، واي انتقام ! ساق حافظ صديقه شرف‌الدين الى الخطأ في ساحة النظريات ، واخطأ هو عين الخطأ في ساحة العمل ! حقا ان للنفس الانسانية اسرارا مغلفة بالف غشاء وغشاء ! ولنترك راوية القصة يلخص « الرؤيا » لنفسه ولاصدقائه.

« كلما تاملت يا اصدقائي هذه القصة العجيبة كما اتضحت لي في شكلها الاخير انتابني الدوار . اذ يخيل الي ان في ثنايا حلكتها المعقدة بتصاريف القدر وتوافق المصادفات خيوطا من الترتيب المنطقي المحكم ، فاطيل البحث فيها عن السبب والمسبب والمقدمة والنتيجة حتى اكل واتعب . ولقد نفضت يدي من الوصول الى الحقيقة في حوادثها الغريبة ولكني‌اسوقها اليكم كما عرفتها وعرفتها لطفية نادرة من نوادر الحوادث وعجيبة من عجائب الحكايات فيها عبرة لمن اراد ان يعتبر والفلسفة لمن شاء ان يتفلسف » (١)

واذا كان المرض يقدم جوا مثاليا لابراز التعارض والتناقض بين الرؤية والرؤيا ، فان المرض ايضا بما يحدثه من اختلال فى‌قوانين الجسم المادية المعروفة والمرئية يمكن ان يكون السلم الذي به نرتقي مراقي الرؤيا ، والمفتاح الذي به نفتتح عوالمها المجنحة التي لا تكون شفافة الا لمن تحرر من قوانين المادة والحياة في جسمه . ومن هذا القبيل قصة « حمى » المكتوبة باسلوب اليوميات والتي لا يعتمد سردها مع ذلك على التقويم الزمني وانما على ما تسجله درجات الحمى من ارتفاع وانخفاض في جسم ذلك الاخ الذي قتل اخاه غيرة وحسدا في نوبة شديدة من الحمى . فلكأن الحمى حررت الجسم من عقاله فأقدم على اقتراف ما لم يكن ليقترفه بتاتا فيما لو ظل خاضعا لقوانينه المألوفة التي من اولى خصائصها التمييز بين الخير والشر . وبغض النظر عن جريمة القتل ، الدنيئة كل‌الدناءة في مقاييسنا نحن البشر الاصحاء ، فلننظر اي عالم اسطوري ارتفع اليه الاخ القاتل على اجنحة حمّاه التي كانت قد تجاوزت الدرجة الاربعين :

« لقد قتلت اخي ثم اخذت اصعد في الجو . اني اسمع خفق الاجنحة وارى الارض تنأى عن عيني . ايها الجناح الخفاق اين تمضي بي ؟ انك تخترق بي اجواء من لهب والسنة من نار لا دخان فيها ولا قفار . ان في راسي عاصفة ، وعيناي نتاتا من وقبيهما وهما تتطلعان الى اغوار العالم الذي تطير بي فيه . علام تسرع ؟اتريد ان تهرب من الزمن او تبغي الخروج من الوجود ؟ لا أشتكي الا جفاف الفم وحرقة البلعوم . أليس بين اطباق السماء ماء ؟ ايها الطائر حنانيك . اما آن لي ان أشتعل لهبا في هذا الجحيم؟ كلما امعن الجناح الخفاق في الصعود زاد السعير وقدا . يخيل الي اني اسمع حفيف أفلاك النجوم في دورانها وارى انقضاض الشهب والرجوم. أهذه تخوم الكون وحدود الوجود ؟».

وعندما تهبط حرارة الحمى ، يكون السقوط واكتشاف الجريمة: « رباه رحمتك ، لقد هيض الجناح وتمزق . أية هوة هذه‌التي أتردى فيها ؟ اني ارى العوالم التي اجتزتها في صعودي واحدة اثر واحدة تتراجع في عيني . النجوم ، وتلوح لي الارض ، ثم الذرى ،ثم السفوح ، وحسن المسجى ، وهند الباكية ، وجريمتي ، وحماي . لقد سقطت في مستنقع آسن . اماه » (٢) .

وقصة « النوبة القاتلة » تؤكد هي الاخرى ما في المرض من قوة عجيبة لا يتمتع بها بحال من الاحوال الجسم الصحيح المعافى نفسيا وماديا ، المرض كمشكاة نطل منها على عوالم لا يمكن لابصارنا الحسيرة ان تشق حجبها ، وكمفتاح الى مغارة عجيبة لا تعقلها ولا تنظم الحياة فيها النواميس الطبيعية المعروفة لدينا ، او بالاحرى المألوفة لدى خلايا دماغنا القاصر العاجز عن ان يرى الحقيقة العليا ولو كان ارتفاعها عن الحقيقة المبتذلة قيد انملة لا اكثر . وما « النوبة القاتلة » الا داء الصرع ، ذلك الداء الذي سمي في الماضي بالمرض الالهي لانه لا يصيب ، كما كان يسود الاعتقاد ، الا المتألهين من البشر ، العباقرة الذين قيض لهم ان يروا ، وبتعبير صوفي ، ان يعاينوا ما لم يقيض لنا نحن البشر العاديين الاسوياء ان نراه او نعاينه .

وابطال « النوبة القاتلة » اربعة : الطبيب ، راوي القصة كما هي الحال في قصص‌العجيلي جميعا، وعبد العزيز افندي‌الموظف المنفي في بلدة صغيرة ، وزوجته ، وصديقه سليم الداني . اما محور القصة فهو العلاقة الآثمة القائمة بين الزوجة والصديق من غير علم الزوج . والطبيب الراوية هو وحده الذي كان على معرفة بهذه العلاقة ،ولهذا فإنه هو وحده الذي أتيح له ان يعرف الحلقة المفقودة التي تستطيع هي وحدها ان تقدم تفسيرا « معقولا » لما سيحدث .وما سيحدث سيقف كل الناس عاجزين عن فهم بواعثه واسبابه ، حتى القضاء الذي كان يهمه اكثر من اي جهة اخرى ان يعرف البواعث والاسباب تلك . ولنترك للطبيب الراوية ان يقص علينا ما حدث ،وان بتفصيل قد يجده بعض القراء مملا ، ولكنه ضروري :

« في عصر احد الايام كنا في حلقة ضمت معظم موظفي بلدة(م) نستمع الى الحديث الشائق المزحوم بالفكاهة الذي كان يديره علينا سليم افندي الداني . فكانت مني التفاتة الى عبدالعزيز افندي وهو في مجلسه مثلنا قد القى بكل سمعه الى المحدث فرأيته وقدامحت منه الكآبة التي كانت تظلل في معظم الاوقات وجهه الصارم‌التقاطيع، فبدا صبوح الملامح لامع النظرة منبسط الجبين وارتسمت على شفتيه المتلئتين ابتسامة فذة كانت تمثل فيها قوة نفسية غريبة ، بدت لعيني طافحة من كل ملامحه . وبينما كنت ابسم كغيري لما كان يرويه لنا سليم الداني رحت اسائل نفسي عما كان يقوله او يفعله عبدالعزيز افندي لو درى بالحديث الذي حدثني به سليم البارحة عن زوجة هذا الاول ،في لحظة من لحظات زهوه بتهافت النساء عليه وعشقهن له . قلت لنفسي ان عبدالعزيز سيقتل سليما او يقتل‌المرأة ولا شك . وبغتة ، او في سرعة تشبه البغتة ، بدا لعيني ان تبدلا غريبا قد اصاب عبدالعزيز افندي ، فقد شحب وجهه وجمدت الابتسامة على شفتيه وتصلبت النظرة في عينيه وهو يحدق في وجه‌سليم‌افندي. ثم زاغت نظراته لحظة ورأيته يبلع ريقه ويقبض بيديه متشنجا على مسندي كرسيه . وقبل ان يفطن احد غيري الى هذا التبدل المفاجيء انبعث عبدالعزيز افندي من مجلسه واقفا بسرعة اللولب وانطلقت من حنجرته صيحة قصيرة محشرجة اجفل لها الحاضرون،ثم لم يلبث ان تطوح ووقع كتلة واحدة في مكانه ، فسمعت بين ضجيج الكراسي المتداعية خلف الناهضين وصيحات الدهشة والعجب رنين اصطدام رأسه بارض المقهى الحجري ، واضحا عاليا » .

---

(١) : المصدر نفسه ـ ص ١٠١ .

(٢) : المصدر نفسه ـ ص ٣٦ ـ ٣٧

وقد نظن للوهلة الاولى اننا امام نوبة صرع عادية . وهذا ما ظنه ايضا الطبيب ، راوي القصة ، الذي حاول ان يخفف عن صاحبه عبدالعزيز وطأة الداء بتوكيده له ان مثل هذا الداء ينزل عادة بالاذكياء والمبرزين منهم . ومع ان تلك النوبة لم تكن الاولى من نوعها التي اصيب بها عبدالعزيز افندي الا انه يصارح صاحبه الطبيب بان ما حدث له هذه المرة يختلف كل الاختلاف عما كان يحدث له في المرات السابقة :

ـ اريد ان احدثك بالذي رأيته ساعة ان وقعت وقعتي تلك في المقهى . لقد قلت لي انك كنت ترافبني حينذاك فرأيت بصري قد زاغ ووجهي قد شحب . واحسبني قادرا على القول اني كنت حتى تلك اللحظة التي تصف واعيا شاعرا بما حولي . وفجأة نبدت لعيني وأنا احدق في وجه صديقنا سليم ملامح شاحبة لصورة مألوفة لدي . واخذت تلك الملامح تتضح بسرعة وتبرز امام ناظري حتى خيل الي انني اراها تشف عن وجه سليم او اني ارى وجه سليم يشف عنها، وحينما انطلقت من صدري تلك الصيحة كنت قد تبينت تلك الصورة وعرفت صاحبها .

ـ صورة من كانت ؟

ـ صورة امرأتي ...»

ومضى على هذا الحادث ما يقرب من عام حاول فيه الطبيب عبثا ان يخفف وطأة الداء عن عبد العزيز افندي .

ولقد توطدت بين الرجلين صداقة قوية لم يكن ينغصها سوى علم الطبيب بالصلة الاثيمة التي ازدادت توثقا بين سليم الداني وزوجة عبدالعزيز . وما كادت عشرة شهور تنصرم حتى لاحت على عبدالعزيز علائم القلق التي هي عنده بمثابة نذير مسبق بنوبة جديدة من نوبات الصرع . ولقد جاءت النهاية ، على حد تعبير الطبيب الراوي ، «فاجعة بئيسة ، نضم في ثنايا تلك الجريمة المروعة مثالا جاوز كل ما كنت افدره عن قوة النفس اذا ما غلى مرجلها ، قوة على العلم : باختراق الحجب الصفيقة القائمة امام عقلنا الواعي وحواسنا القاصرة ، وعلى العمل : بتحريك جسمنا المادي نحو غايات لجمنا عنها في اثناء حياتنا العادية بالخوف والعرف اللذين اعتدنا على دعوتهما بناموس الاجتماع » (١) .

اما الجريمة المروعة التي ورد ذكرها على لسان الطبيب فهي، كما امكن للقارىء ان يتوقع ، الجريمة التي اقترفها عبدالعزيز افندي عندما اطبق بيديه القويتين على خناق صديقه سليم الداني فأخمد انفاسه ، اثناء نوبة الصرع التي انتابته . اما لماذا خنق عبدالعزيز افندي صاحبه سليم الداني ، فهذا ما لا يعرفه هو نفسه ، وان كان يعرف بالتفصيل كيف اقترف جريمته . ولنترك الكلام له :

« اني أكاد أجن . لقد انتهيت الى الاعتقاد بأني قاتل سليم الداني لانك انت وخادمك وكل الظروف تقول بذلك . ولكني اقسم لك بكل ما تريد اني لا ادري من قضية القتل هذه شيئا . أستحلفك بالله هل تعرف لي دافعا الى هذه الجريمة ؟ ألم نكن صديقين متآخيين ؟ سأقص عليك كل ما جرى لاني اريد ان تثق باني ضحية للقدر مثل سليم المرحوم سواء بسواء ، واني لست ذلك المجرم الذي صوره المدعي العام للمحكمة والذي رأيت الحكم عليه في نظرات القاضي.

« لم استطع النوم بعد ان فارقتكم الا بعد ان تناولت قرصا مما اعطيتنيه . وفي الصباح قمت ناشطا فلبست ثيابي ثم جلست وزوجتي نتناول الشاي . وكنت اصغي الى حديثها وانا احس ثورة في صدري. وبينما كنت اتطلع الى وجهها رأيته يتعكر فجأة وتبدو عليه انطباعات ملامح غريبة اخذت تتوضح شيئا وراء شيء . أتذكر حادثتي تلك في المقهى ؟ لقد كانت هذه اختها . وكان الوجه الذي رأيته هذه المرة منطبعا على وجه امرأتي وهو وجه صديقنا سليم ..

وشعرت بدمي يفور في عروقي وان صدري يكاد ينفجر غيظا . ولا بد من ان تكون زوجتي قد لاحظت ذلك اذ سمعتها تسألني بصوت الخائف الفزع : عبدالعزيز ، ماذا جرى لك ؟ ولم ألتفت الى قولها اذ خيل الي أن شفتي صديقي تنفرجان عن ابتسامة هزء بغيضة واني كنت مقصودا بذلك الهزء . فقمت وأنا أهم بشيء ، ولعلي صرخت كما صرخت تلك المرة قبل ان اقع على الارض ، ولكني منذ قمت من مجلسي شعرت باني فقدت رشدي كاملا . ان بعض المارة قد شهدوا بانهم رأوني أسير بخطى ثابتة مغبر الوجه مزبد الفم في الطريق،ولكني أؤكد لك ياصاحبي أني لم استرد وعيي الا وانت توقظني من سباتي وتسألني عن جريمتي ، أهي جريمتي ام جريمة القدر ؟ لقد صرعني هذا الداء نوبات عديدة فلم أضر به احدا ، فلم صب القدر كل نقمته على حياة صديقي بيديّ هاتين ؟ أأكون مجرما ثم تكون جريمتي قتل اعز الناس اليّ والصديق الذي اصطفيته من هذا البلد ؟ انبئني يا صديقي ، قل ! » .

وبالطبع لم يستطع صديقه الطبيب ان ينبئه بشيء ، مع انه الوحيد الذي وضع يده على سر الحلقة المفقودة وادرك لم اصطفى عبد العزيز ضحيته اصطفاء ولم يعتد على غيره من الناس في الطريق ؟ وما الفائدة أصلا من ان ينبئه بالحقيقة ويقول له انه اصطفى سليم الداني بالقتل لانه كان يدوس عرضه ويخونه مع زوجته ؟ ان عبدالعزيز نفسه سيرميه بالكذب « لانه لا يعرف الحقيقة الا في اللحظات القليلة التي يركبه فيها داؤه الالهي فيمزق عن عينيه حجب الحياة البشرية العادية » . فهل من فائدة يجنيها هذا المسكين لو هتك له السر سوى ان يفضحه في زوجته ويزيد ليالي سجنه ظلمة وعذابا ؟ ولعل الفائدة الوحيدة المجتناة من الثمن الباهظ الذي دفعه عبد العزيز عن جريمته اللاواعية ـ ١٥ عاما سجنا ـ هي الفائدة التي نستطيع ـ نحن قراء العجيلي ـ ان نستخلصها من تلك القصة الغريبة ،قصة امرىء يخرج «من بيته هادئا في الصباح المشرق فيسير قرابة ربع ساعة ، ويلقى اناسا على طريقه فلا يعارضهم بخير ولا شر ، ثم يقرع بابا يفتحه رجل غافل فيقتله خنقا » لانه رأى صورته منطبعة على وجه زوجته مثلما انطبعت صورتها هي على وجه ذلك الرجل قبل عشرة شهور ، كل ذلك وهو اسير نوبة صرعه. انها كما نرى قصة « لايقبلها عاقل ولا يقرك عليها طبيب » ، ولكنها مع ذلك اقرب القصص الى العقل اذا ما ارتضى هذا العقل ان يسير في الطرق الغريبة التي يرسمها له العجيلي ، بشرط ان يحرر نفسه من الغشاوة الصفيقة التي ضربت بنسجها حول الخلايا الرمادية فأعمتها عن رؤية الحقائق العليا ولم تأذن لها بان ترى الا ما اذن لسائر الناس ان يروه ، أقصد الناس الذين اصاب الروتين والعرف والتعود ابصارهم بالكمه فهي تبصر ولا ترى ، وترى ولا تعاين ، وتكتفي بالرؤية ولا تشرق بالرؤيا .

فلنبصر بأعين جديدة . هذا ما يطالبنا به العجيلي ، وهذا ما تحثنا عليه كل قصة من قصص « بنت الساحرة » ، ذلك اننا اذا ما استبدلنا ابصارنا الحسيرة بفعل الروتين أعينا جديدة ، أوبالاحرى عقولا جديدة ، فنحن لن نرى ونعاين كيف ان محلول الكينا يمكن ان ينتقم فحسب ، وكيف ان قطرات الدم يمكن ان تحدث انقلاباهائلا في الصفات الخلقية فحسب ، وكيف ان الصرع قد يكون مرضا الهيا حقا فحسب ، ولكننا سنرى ايضا ونعاين كيف يمكن للضفادع ان تنتقم في قصة « الضفادع » ، وكيف يمكن للقدر ان يجمع بين كائنين بصلة لا تقبل انفصاما حتى قبل ان يبلغ احد هذين الكائنين من العمر يوما واحدا ، وذلك في قصة « المعجزة » ، وكيف للموتى ان يقوموا حقا وصدقا في قصة « قيام الموتى » ، بل كيف يمكن

---

(١) : المصدر نفسه ـ ص ٨١ .

للسحر،لا السحر النفسي،او سحر الايحاء الذي يقر به القرن العشرون، وانما السحر الحقيقي الذي حاكت اساطيره القرون الوسطى وما قبل الوسطى ، اقول كيف يمكن للسحر الوسيطي هذا ان يفعل فعله ويأتي أثره حتى في القرن العشرين الذي نزهو بأننا نحيا فيه ، وذلك في قصة « بنت الساحرة » القصة الوحيدة في المجموعة التي ليس فيها اطباء او مرضى وانما غجرية ساحرة كالفجريات اللائي عرفنا بهن الادب الشعبي او الادب الموروث عن حضارات توصف اليوم بانها غير عقلانية .

والحقيقة ان قصة « بنت الساحرة » بتفردها هذا بين سائر قصص المجموعة تمثل خطوة او مرحلة جديدة في ادب العجيلي . فلكأن العجيلي قد استنفد جو الطب والمرض وما يمكن ان يوحي به من ظاهرات لا يمكن تفسيرها بقانون العقل وحده ، فعاد الى جو اكثر اصالة هو جو البادية السورية الذي فيه نشأ وترعرع قبل ان ينتقل الى جو الطب اثناء دراسته الجامعية . واذا كان جو البادية يضيق مجالا بحكم طبيعته عن الرؤية بمعناها العلمي ، فانه بحكم من طبيعته ايضا ارحب الاجواء اتساعا للرؤيا . والواقع انه ما من ظاهرة طبيعية تمتزج فيها الرؤية بالرؤيا وتمحي فيها المعالم والحدود بينهما كظاهرة السراب التي هي بالتأكيد ظاهرة علمية ترجع الى شدة حرارة طبقات الهواء او الى عدم التساوي في كثافتها ، وبالتالي الى عدم التساوي في خط انكسار اشعة الشمس . ولكنها في الوقت نفسه ظاهرة وهمية لا وجود لها الا بالنسبة الى عين الناظر . والسراب ، هذا الشيء الموجود وكأنه لا موجود ، او بالاحرى هذا الشيء اللاموجود وكأنه موجود ، هو من اكثر من وجهة نظر واحدة كلمة السر التي تلخص عالم العجيلي وتفتح مغاليقه او جواز المرور الى مكنونات مغائره وكنوزها . وما « الظهيرة » ، اروع قصص مجموعة العجيلي الثانية ، « ساعة الملازم » ، الا قصة سراب ، سراب عاينه مزيد، الجندي الهجان ، وعايناه نحن معه ، ثم لم يعد يدري ، ونحن معه، ما اذا كان السراب حقا سرابا والوهم وهما . واني لمزيد ، ونحن معه، ان يميز بين السراب والحقيقة وسط تلك البادية المحرقة المحترقة بلظى الهجيرة ؟ كان الهجانة ، رفاق مزيد ، قد غربوا منذ الصباح وتركوه في الخباء وحده خفيرا ، وكانت « الشمس تتقد والارض ملتهبة، وفي دائرة فطرها مد البصر من تلك البادية المحترقة بنار الظهيرة لم يكن يتنفس حي او يمتد ظل ... وكان يضطجع في رواق الخباء فيشعر بالسموم تخترق فرج الرواق كأنها أنفاس ثعابين تفح في مسمعه وتلفح وجهه . اما اذا مد بصره الى السهل المنبسط امامه فان الهواء كان يلوح له في جو ذلك السهل كأنه ألسنة متوهجة من لهيب ابيض ، والتراب كأنه حميم يغلي تعلوه ابخرة لا ترى ولكنها تحس . وكانت تتراءى لعينيه بقع من السراب متفرقة على مد البصر كأنها بحيرات لجينية من ماء صاف ، وكلما تقدم النهار اجتمعت تلك البحيرات واتسعت . ويا لها من بحيرات عجيبة تفور وتغلي ويتلاطم موجها ويتطاحن بين نظرة من مزيد وكرة من عينه عليها »(1)

ولم يكن له من سمير في وحدته وفي حرارة الهاجرة غير خود، او بالاحرى طيف خود ، تلك الصبية الفرعاء المشوقة، اللينة القد، التي «في عينها سحر وفي عضدها الايمن سوار ثخين من زجاج ازرق».

لقد عرف مزيد خود في قرية على الفرات ، وكان يميزها عن سائر لداتها « طول ووثوب نهدين ورنين ضحكة » . ولقد جمعهما ذات ليلة اياب من مراح الغنم ، فجاذبها حديث الغزل فما تأبت ،واحتضن كفها في كفه فما تمنعت ، لكنها صدته ضاحكة حين حاول ان يقبلها . ولقد ظلت تلك القبلة التي ما نالها حسرة حياته التي ما بعدها حسرة . ولكم يحلو له الان ، وهو في خبائه يتلوى تحت لظى الظهيرة ، ان يغمض عينيه ويتصور ....

يتصور تلك الهناءة التي لم تكن ، تلك القبلة التي لم يقيض له ان يطبعها على خد خود الاسجح اللامع في شقرة محروقة المزدان بوشم صغير كأنه زهرة برية ، او على ثغرها الالعس المضموم على شفه عليا ناتئة وسفلى غليظة تملأ الفم والقلب .

و« ملأت رأسه وصدره وخياله تلك القبلة الضائعة فكان وهو يتحرق ندما عليها وشوقا اليها يكاد يحس بشفتي خود بين شفتيه ويضم قدها اليه » . ولكنه ما يكاد يسترسل في حلمه حتى يوقظه لسع حديد الخيمة المحمى . وفيما هو كذلك ، بين الحلم واليقظة، مرت بخبائه فافلة انفصل عنها احد رجالها وتقدم من مزيد وهو يلهث لهاثا دل على ما به من عطش . فقام اليه مزيد وقدم اليه بغيته، فعب الرجل حتى ارتوى . ثم انبطح على تراب ارض الخيمة المرتوية ظلا . وبعد هنيهة من الزمن قال الرجل وكأنه يريد ان يكافىء مزيد على جميله :

ـ اعط يدك للشيخ عبدالله ليرى حظك .

فمد اليه مزيد كفه فتأملها الشيخ عبدالله مليا ثم قال :

ـ في كفك بنت واي بنت : طويلة ، شعرها لامع ، مقرونة الحاجبين . وفي نفسك من هذه الخلوة شيء .

ـ ما هو ؟

ـ قبلة ...

فارتجف مزيد الذي عادت الى ذهنه خواطره عن القبلة التي فاتته من ثغر خود . ولكن الشيخ عبدالله تابع :

ـ كم تدفع في قبلة من خدها ؟.. هل تدفع هذا البرنس الاحمر ؟ (2) .

فقال مزيد وهو يحسب المسألة مزاحا وهزلا :

ـ نعم .

ولكنه ما وجد الا والشيخ عبدالله قد اقتاده من يده خارج الخيمة . فسايره مزيد والابتسامة على شفتيه . و« احس بالشمس من فوقه تلفه بوقدها وبالارض من تحته تغلي بحرها . وحدث نفسه بالرجوع الى الخيمة ولكن عينيه غامتا بالوهج ورأسه دار من الحر. وبدلا من ان يسير الى الظل نطلع الى السراب فرأى فيه شخصا يتقدم من بعيد . ودلك اجفانه ثم فتحها ليثبت الشخص ، فراعه ان ان تبدى له قد امرأة .. ووجف قلبه .. ولم يصدق عينيه ، فقد كان يعرف ذلك القد ويعرف صاحبته . ان هذه التي انفصلت اليه من سراب الصحراء مقبلة عليه بقامة فرعاء وشعر وصف وخد يزينه وشم كزهرة الخابون البرية وشفتين خلقتا للقبل لم تكن ... غير خود ، خود حبيبة القلب ! ».

وبنقلة بارعة من الراوي نجد انفسنا ، بعد ان بلغت القصة ذروة توترها ، في المستشفى العسكري حيث يعالج مزيد من ضربة الشمس التي كادت تقضي عليه . والى جانب سرير مزيد كان يقف رئيسه الملازم والشيخ عبدالله الذي وجهت اليه تهمة سرقة البرنس الاحمر فطلب شهادة مزيد مؤكدا انه انما ابتاعه منه :

ـ أنا اشتريت وهو باع .

ـ بكم اشتريت ؟

ـ اسأله يا سيدي . اسأل مزيد !

وما كان مزيد بقادر على الاجابة وان كان قادرا على السمع . وكان « مغمض العينين وكأنه في غيبوبة . ولم يكن في الحقيقة كذلك، ولكنه وهو مغمض العينين كان أقدر على استعادة ما رآه منذ ايام في حر الظهيرة في البادية . كان السراب في عينيه المغمضتين يموج موجا بينما كانت خود تخوضه اليه . أيخدع عن خود وهو الذي قضى ليالي

---

(1) « ساعة الملازم » ـ دار العلم للملايين ـ ص ٦٤ ـ ٦٥ .

(2) : جزء من زي الهجانة السوريين .

في تذكرها وترديد صور كل حركة من جسمها الملفوف لعينيه ؟

لقد كانت تخوض السراب اليه مخاضه اليها حافيا ملهوفا . ولما التقيا في تلك البادية القفراء وحدهما لا رقيب عليهما الا الشمس المتقدة ضمها الضمة التي كانت تملأ نفسه شوقا ونوقا ،وتمتع بالقبلة التي فاتته منها ليلة آبا وحيدين من مراح الغنم ، نعم ، لقد قبض الثمن ، ثمن البرنس ، فلماذا ينكر ذلك على الشيخ عبدالله ؟ » .

وكان صوت الملازم ما يزال يعلو مكررا :

ـ مزيد ، أجبني . هل صحيح انك قبضت ثمن البرنس ؟ هل تعرف عقوبة من يبيع شيئا من تجهيزاته العسكرية ؟ ثلاث سنوات في السجن المنفرد ؟ اجبني : أصحيح ما يقوله هذا الفجري ؟

فجمع مزيد « قواه ليخرج بنفسه من حلمه الجميل ، ورفع رأسه قليلا ليقول بصوت ضعيف مستسلم :

ـ صحيح يا سيدي الملازم . لقد قبضت الثمن !

هل كان ما رآه مزيد سرابا ؟ ان هذا سؤال لن نتلقى عنه جوابا ابدا . ومهما نكن فناعتنا ، فلن نجد له ابدا ايضا تفسيرا . ان العالم الذي أطل عليه مزيد للحظات فرأى منه ما رأى هو غير عالمنا الذي نحيا فيه بالفة وباطمئنان تبعثه فينا ثقتنا بان قوانين ونواميس ازلية مكينة تحكمه وتنظمه . فماذا يحدث لو ان عالمنا الوطيد الراسخ هذا قد انفلت عقاله من قوانينه ونواميسه؟ قد يقال ان هذا لمستحيل ، وهو حقا مستحيل ، اللهم الا اذا طرأ اختلال على المنظور الممتد منا اليه ومنه الينا . وليكن هذاالاختلال مجرد تخلخل في طبقات الهواء او عدم تساو في انحراف الاشعة الشمسية ، فعندئذ يمكن لاي منا ان يعاين ما عاينه مزيد وما كاد ان يودي به الى حافة الموت او الجنون .

ان الكون المحيط بنا هو الذي يصاب ببعض الاختلال في قصة « الظهيرة » . ولكن هذا الاختلال قد يكون فينا احيانا وفي نظرتنا الى الكون المحيط بنا . وهذا ما تصوره قصة «الحب والابعاد» وراويتها الذي يرى العالم على غير الصورة التي نراه بها نحن لان عينه اليمنى من زجاج . ومن كان يرى العالم بعين واحدة هو غير الذي يراه بعينيه الاثنتين . فالعالم عند ذاك لا يعود ذا ابعاد ثلاثة ،وانما يتقلص الى بعدين اثنين : الطول والعرض . اما البعد الثالث ، الثخن ، فلا يعود له وجود لانه ليس الا نتيجة لعدم التطابق بين الصور التي تعكسها كل عين من عيني الانسان .

وعلى هذا فان البعد الثالث الذي نراه نحن الاسوياء النظر بلا جهد ولا تكلف ، لا يراه ذو العين الواحدة الا وهما وبعد جهد ولأي . ولكن من هنا على وجه التحديد يكتسب العالم عمقا لا نعرفه عنه نحن معشر ذوي العينين . فنحن لا نرى للعالم عمقا لان عمق العالم بات امرا مألوفا لدينا . أما ذو العين الواحدة فانه بحاجة ماسة ودائمة لان يهب العالم عمقا من نفسه وباطنه ما دام بصره لا يرى العالم الا مسطحا . ويحق لنا ، والحالة هذه ، ان نتساءل من منا يرى العالم على حقيقته : نحن معشر ذوي العينين ام راوية القصة ذو العين اليمنى الزجاجية ؟ وعندما يخاطبنا راوية القصة قائلا :«اني لا ادرك الا وهما ذلك البعد الثالث الذي تتحدثون عنه انتم معشر ذوي العينين ، فكل ما في في الوجود عندي صورة مسطحة لا نتوء فيها ولا بروز . فارث لي يا صاحبي لاني اعيش في عالمي ، ذي البعدين، الضيق ، بينما تعيشون انتم في عالم طويل عريض عميق ، ذي ثلاثة أبعاد » (١) أقول عندما يطالبنا هذا الراوية بان نرثي له ، لا ندري أيخاطبنا بالجد ام هو يهزأ بنا لاننا نحن الجديرون بالرثاء والشفقة اذ ان الفتنا مع عمق العالم قد افقدتنا الاحساس به كما افقدتنا الحاجة الى أن نهب العالم عمقه من أنفسنا لا من ابصارنا وحدها . وبالفعل ، من منا يستحق الرثاء : أنحن الذين لا نرى من العالم غير ما اعتاد الناس من امثالنا ان يروه بأعينهم الحسيرة، ام راوية القصة الذي اصبحت « الرؤيا » جزءا لا يتجزأ من وجوده اليومي والذي كانت له مع « هندية » قصة قريبة الشبه للغاية من قصة مزيد مع خود ؟

وقصور العقل البشري كأداة . وحيدة للادراك والفهم والتفسير لا يتجلى على صعيد العلاقات الانسانية وحدها . بل لعل قصور ذلك العقل على صعيد هذه العلاقات اصبح امرا معترفا به حتى على صعيد العلم الرسمي . وكل المذاهب اللاعقلانية التي ولدتها الفلسفة والاداب على مر الاحقاب لم تكن الا محاولة لتدارك ما قصر عنه العقل . ولقد اعيد اليوم للامعقول اعتباره حتى من قبل المذاهب الاشد تمسكا بالعقل والارسخ ثقة بقدرته على سبر الاغوار ، كل الاغوار . ان العلم الحديث يقر اليوم بلا صعوبة ببعض الظواهر اللاعقلانية كالايحاء والتلباتي والتنويم المغناطيسي ، بل هو لا يحجم عن استخدامها كطرائق عقلانية في الطب النفسي على سبيل المثال . وهذا لا يعني بالطبع ان الشعوذة قد استبعدت نهائيا عن هذه الميادين . وليس من المستبعد ايضا ان نجد هناك من قد يفكر بتوجيه تهمة الشعوذة الى الدكتور العجيلي . ولكن موجه هذا الاتهام سيكون قد تناسى حقيقة اساسية وهي ان الدكتور العجيلي لا يكتب كعالم ، وانما كأديب ، ان قصة كقصة « القفاز » مرفوضة حتما وسلفا من وجهة نظر العلم ، هذا العلم الذي قد يقر باللامعقول على صعيد العلاقات بين انسان وانسان كما قلنا ، والذي يرفض في الوقت نفسه وبشدة وجود اللامعقول على صعيد العلاقة بالمادة والجماد . ومع ذلك فان ما تحاول ان توحي به قصة « القفاز » هو ان الجماد يتمتع ببعض الخصائص الانسانية من ارادة ورغبة وعاطفة . فلقد وقع نظر راوي القصة على قفاز معروض في واجهة احد الحوانيت ، فراقه واراد شراءه . ولكن الثمن الباهظ الذي طلبه فيه البائع جعل صاحبنا يصرف النظر عن شرائه . بيد ان القفاز على ما يبدو راقه صاحبنا بدوره فأراد ان ينتقل ملكيته اليه وفرض ارادته هذه بقدرة قادر . ولقد كان لهذا القفاز من الحوادث مع صاحبه الجديد ما جعل هذا الاخير يشك باحكام العقل البشري ويؤمن بان «هناك غير قوانين المادة مسيطر على هذا الكون » .

وهكذا فان الحد الفاصل بين الانسان والجماد يتداعى ويسقط اذ كيف «نجزم اننا كاناسي نفوق الجماد بميزة ما ؟ اليس هو العقل الانساني الذي يدعي ذلك ؟ ولكن من ذا الذي يستطيع اقناعنا بان العقل الانساني ميزان لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؟»(٢) واذا لم يكن قانون السببية الا وجها واحدا من بين وجوه الحقيقة الالف ، واذا كان هناك من يخرقه في عالم العاقلين والاحياء كما برهنت على ذلك قصص العجيلي الاخرى ، فما ادرانا ان الجوامد لا تملك ايضا مثل هذه القدرة كما تثبت ذلك قصة « القفاز » ومن قبلها قصة « صروع الناي » ومن بعدها قصة« سال الدم » ؟ هل تتصورون نايا من القصب الهندي تعجز رياح الاعاصير عن تصديعه اذا ما نفخت فيه ، ومع ذلك تصدعه بل تحطمه انفاس العاشق اذا كان كليم الفؤاد جريح النفس ؟ وهل تتصورون مضخة ماء صنعت من الحديد الاصم ، ولكن محركها يأبى مع ذلك ان يدور الا اذا سال الدم في ساقية الماء ؟

---

(١) : المصدر نفسه ـ ص ٣٢ . ـ ولعله من المفيد ان نذكر ان الدكتور عبدالسلام العجيلي يشكو فعلا من « العاهة » نفسها التي يشكو منها راوية« الحب والابعاد » .

(٢) : المصدر نفسه ـ ص ٥٦

ان الانسان ليس وحده في هـذا الكون ، كمـا ان هذا الكـون لا تحكمه القوانين والنواميس المعروفـة للعقل البشري وحده .

والمسالة ليست مسالة ادلة وبراهين . والعجيلي لا يطالبنـا اصلا بأن نؤمن حتى نطالبه نحـن بدورنـا بالادلة والبراهين . انمـا العجيلي راويـة . وليس من فرض على الراوية الا ان يخلق الجو المقنع الذي تدور فيه المحادثة التي يريد ان يرويها . ونحن احرار بعد ذلك في ان نؤخذ او لا نؤخذ بالجـو الذي رسم لنـا . وسواء من وجهـة النظـر هـذه ان كـان الجـو واقعيـا او أسطوريا . انمـا المهم ان نؤخذ به . ولعل براعـة الفنان الكبير تكمن في اضطراره ايانا على ان نؤخذ بالجو الذي خلقه وان كانت عقولنا وملكاتنا المنطقية ترفضـه وتأباه . وذلكم هـو شأننـا مع رائعـة العجيلي « قناديل اشبيلية ». ولان هـذه الرائعـة لا تعـدو ان تكـون اكثر من جو ، لذا فانهـاتتمرد على التلخيص . ان مـن حق كل قارىء ان يراجع نفسه ويسائلهـا بعـد انتهائه مـن مطالعـة هـذه القصة : هل مـا قرأته ممكـن ؟ هل يمكـن للعقل ان يصدق ؟ هل يمكـن لهـذا أن يحدث ؟ اجل ، ان من حقه ان يطـرح مثل هذه الاسئلة ، ولكـن بعد ان تكون خلايا جسمه قـد انتفضت بتلـك الرعشة التي يندر ان يحدثهـا فينا حتى العمالقة من الكتاب العالميين . وسواء أكنـا مـن العقلانيين او من رافضة العقل فاننـا لا نجـد فكاكا من ان نؤخذ بذلك الجو المسعور في تلك الـدار المغربيـة الطراز من ذلك الحي العتيق من تلـك المدينـة الاندلسية ، اشبيلية . دار متسربلة بأحلام الماضي ، فيستطيع كل من كـان بهحنين ان يراهـا على الوجـه الذي يحـن اليه . دار تمحي في فاعتهـا ذات القناديل الغامضـة الاضواء الحدود بيـن العقل والجنون ، فلا ندري هل نؤخذ بسحرهـا ونتجرد من رداء العقل كمـا فعـل « السيد » ، السيدو ذلـك العربي المغربي الذي قدم الى اشبيلية باحثا عن آثـار اجداده الذيـن استوطنـوا الربوع الاندلسيـة ثمانيـة قرون ، امنهرب منهـا وننجـو بعقولنـا مضحين بسعادة لا يمكـن للعقل ابدا انيعرفها كمـا فعل ذلك العربي السائح ، راويـة القصة ؟

لا ندري . ولن ندري . انما الشيء الوحيد الاكيد هو ان رعشة عارمة ، مشحونة بالكهرباء ، ستمتلك خلايـا جسمنا كلمـا تذكرنـاانا طالعنا ذات يوم قصة اسمها «قنديل اشبيلية» .

و«الشباك» ؟ الا نبعث فينا هي الاخرى رعشة مماثلة بالرغم من الفارق الكبيـر بينهـا وبيـن « قناديل اشبيلية » في المضمـون ؟ ان الحد هذه المرة لا يمحي بيـن الوهم والحقيقة ، بين الجنون والعقل ، وانمـا بيـن الموت والحيـاة .

لقد جاء في « قصص الانبياء » كمـا نقل عنها الدكتور العجيلي هذه القصة عـن الخضر وصاحبه والموت :

« قال الخضر لصاحبه : هذا ملـك الموت قادم الينا .

فاستولى على صاحبه الفزع وقال له : يا نبي الله اني خائف .ادع ربـك ان ينقلنـي الساعـة الى الهنـد .

فدعـا الخضر ربه ، فأرسل الله ملكا حمل صاحبالخضر الى الهنـد فـي ساعتـه .

وتقدم ملك الموت وعلى ملامحه الدهشة الى الخضر ، فقال لـه الخضر : مـا يدهشـك ؟

قال ملك الموت : يدهشني اني رأيتصاحبك هنا ، وفي لـوح الازل مكتوب اني اقبض روحه اليوم في الهند » .

ولقد كتب في لوح الازل ان « عارف» سيموت فيعام ١٩٤٥ .

لم يكن عارف يفكر بالموت لا من قريب ولا من بعيد . كل ماهنالك انه بينمـا كان ينقب في صندوق له قديم مملوء بالصحف الباليـة وبالكتب المدرسيـة العتيقـة عثر على مفكرة كـان قد سجل فيهايومياته قبل ثمـانيـة عشر عامـا خلت . وفيمـا هو يقلب صفحات المفكـرة وقع نظره على جملة واحدة مسجلة في يوم الخامس من ايار من عـام ١٩٢٧ ، وكانت تقول : سأموت في عام ١٩٤٥ ، انشاءالله !

و« جمدت نظرة عارف على هذه الجملة الغريبة كان لـم يجل فـي خاطره انه كتبهـا بخطه في يوم من الايام . ثم انطلقت من فمه ضحكـة وهو يذكـر عالم الاخيلة والرؤى الغامضة الذي كان يعيش فيه ،بافكاره منذ ثمـانيـة عشر عامـا ، ايام كـان فتى مراهقـا يتلقى دروسـه الثانويـة » .

ولكن ضحكـة عارف لم تدم طويلا . فقد وقع نظره على الروزنامة، فاذا بهـا تشيـر الى ان اليوم الذي هـو فيه هـو الثلاثون من كانون الاول مـن عام ١٩٤٥ . اذن لم يبق غير يوم واحد على انقضاء العام ، وربما على انقضاء حياته . ولكن ماله وهذه الافكار السوداء؟ اي‌جنون اعتراه في ذلك اليـوم من ايام ايار ١٩٢٧ لكي يسجل هذه السخافـة في مفكرته ؟ ولكـن اهي حقـا سخافة ام هي نبوءة ؟ ومـا نام ليلتهتلك وتقلب على فراشه بين الحلم واليقظـة محاولا ان يطرد هواجسه التي تركزت حول فكرة واحدة : ان عام ١٩٤٥ قد بقي لـه من الحياة يوم واحـد !

يوم واحد ! هل يمكن ان يموت خلال هذا اليوم المتبقي من العام، وهو الذي لم يمت طيلة ايام لا تحصى لسنوات عديدة خلت ؟ ولكن بم يمكـن ان يموت وقد استقر به المطاف فيهذه البلدة الصغيرة التـيلا يحدث فيها شيء ؟ لو كان في المدينـة لـما آمن على حياته من ضربـة طائشة او سيارة هادرة . اجل ، علىيـدمن يمكـن ان يموت هنا ؟ ومن هم اعداؤه الذيـن يمكـن ان يفكروا بقتله ؟ انهم احد اثنين :

اما آل سعدى اذا بلغهم امره معها ، واما ابو سليمـان خصمهفي الارض التي تجاور ارضه . وقـد لا يمـوت بيد أحد ، وانمـا فدنفجر به الزائدة التي ذاق في الماضي من بعض نوباتها . تلكم هي نقـاط الضعف التي بقيت للقدر في حياة عارف .. فماذا لو سعى من الغـد لان يقطـع الطريق على القدر فيهـا ؟

ومن الغد الباكـر امتطى عارف صهوة حصانه ليصفي حساباته الثلاثة . ذهب الى ابي سليمـان وتنازل لـه عن الارض التي هيموضع نـزاع . واتى آل سعدى طالبا منهم يد بنتهم . ومضى الى الطبيـب يستشيره في أمر زائدته فطمأنه هـذا الى انها بخير . وعندمـا آب عارف الى بيته مساء ، كـان قد قطع على القدر كل الطريق . ولكنه ما كاد ينزل عـن ظهر حصانه حتى شعر باوجاع‌الزمتهالفراش. وارسل في طلب الطبيب وكل خوفه ان تكون الزائدة قـد انفجرت ، ولكـن الطبيب طمأنه من جديد . الا ان وسواس الموت كـان قد تسلط عليه، فلم يقنع بمـا قاله الطبيب من ان زائدته بخير . وظل غير قانعحتـى .. اسلم الروح قبل ان يطل عليه صباح اليوم الاول من عام ١٩٤٦ .

بم مات عارف ؟ ان الطبيب الذي عالجه والذي لـم يكن يعرف شيئـا عـن قصة المفكرة ، يقول لنـا وقد وضع يده على مفتاحاللغز :

« بم مات عارف ؟ الاصح ان نسأل لم مات عارف ، لو ان لهـذا السؤال جوابا . انه لم يكـن مصابا بالزائدة ، ولعله مات بالخوفمنها. مسكين عارف ، قتله مرض لم يصب به . تقول كتب الطب ويظن الناس تبعـا لهـا ان المرض هـو الذي يسبب الموت . لا تصدق هذا ابـدا،

بل ثق معي ان العكس هو الصحيح : الموت هو علة المرض . هذا رجل من اصحابك يجب ان تنتهي حياته . انك لو استطعت ان ترى ما لا يرى من عوامل الوجود التي تتفاعل حول هذا الرجل لابصرت الشباك تلقى عليه من كل جانب لتجذبه الى هوة المنية . فاذا اصيب بعارض بسيط ومات سريعا امام عينيك ، يهز الطبيب كتفيه ولا يملك الا ان يقول بان ميتة صاحبك كانت غير قانونية لان كتب الطب لا تجيزها . ولكن صاحبك مات مع ذلك ، لا لان المرض قد قضى عليه بل لانه لا بد من موته . كل الناس يموتون هكذا ، وهكذا مات صديقنا عارف الذي نفضنا منذ ايام قليلة ايدينا من تراب قبره » (١).

تلكم هي المسألة كلها كما قال الطبيب : لو استطعنا ان نرى ما لا يرى .. ولكن من ذا الذي اعطي له ان يرى ما لا يرى ؟ ومن يدرينا ، عندما يخيل الينا انا نفد رأينا ما لا يرى ، اننا رأينا حقا وفعلا ما لا يرى ؟ الم يكد محمد ويس ، ذلك القروي البسيط القلب في قصة « الرؤيا » يموت بمثل ما مات به عارف لان شيخ القرية ادخل في ذهنه انه قد رأى ما لا يرى ؟ ولولا تلك الحيلة البارعة التي لجأ اليها معلم القرية فأدخل في ذهن محمد ويس رؤيا معاكسة لتلك التي رآها في المرة الاولى ، هل كان محمد ويس سينجو من ميتة عارف ؟

ومهما يكن من امر ، فان الموت سيصبح هو الرؤيا الرئيسية في عالم العجيلي في قصصه القادمة . ذلك ان للموت سرا لا يستطيع كل علم العالم النفاذ اليه . العلم يستطيع ان يقرر احيانا بم مات الانسان ، ولكنه لا يستطيع ان يعلم لم مات . ان الدكتور رشيد في قصة «الكأس» قد مات اختناقا بانسداد شرايين القلب . هذه حقيقة لا يمارى فيها . ولكن لماذا لم يمت في النوبة الاولى ولا في النوبة الثانية مع انهما كانتا قاتلتين ، في حين مات في النوبة الثالثة التي اكد له الاطباء انها لن تكون قاتلة لان الشعبة المسدودة من شرايين قلبه قد قامت مقامها شعب جانبية اخذت على نفسها ان تغذي تلك المنطقة من نسج القلب التي كان يغذيها الشريان المسدود؟ ان «الموت هو اجمال كل تفصيل في الوجود (٢) » كما يقول راوية قصة « الكأس » ، فأي فائدة من الاجمال او التفصيل في اسباب موت الدكتور رشيد ؟ ان الاطباء الذين قرأوا مخططات قلبه قبيل وفاته قالوا بأن نوبة ثالثة من نوبات الخناق هي بالنسبة اليه نوبة قاضية، فماذا حدث اذن للشعب الجانبية ؟ بل كيف امكن ان تصيبه نوبة ثالثة مع ان نطاسيي جامعة فيينا اكدوا له ان ليس عليه ان يخشى من نوبة ثالثة ؟

لقد مات الدكتور رشيد بنوبة ثالثة . هذه حقيقة لا تقبل نقاشا. ولكن لم مات الدكتور رشيد ؟ لم انتابته نوبة ثالثة ؟ ان كل هذه الاسئلة لا تجد لها جوابا الا في لغز الكأس ، الكأس التي كان الدكتور رشيد قد اعدها ليشرب فيها دواءه اذا ادركته النوبة الثالثة . ولقد شاء حظ الدكتور رشيد السيىء ان تتحطم هذه الكأس بحركة طائشة من الخادم. ومن لحظتها دخل في روع الدكتور رشيد انه لن ينجو من نوبة ثالثة . ولم ينج . ولكن ما قصة تلك الكأس ؟ انها كأس عادية كغيرها من الكؤوس الزجاجية . وكل ما هنالك انه قد نقشت عليها اسماء ممثلي مسرحية «فتاة الكوخ» التي شهدها الدكتور رشيد في فيينا ايام كان طالبا جامعيا ، فأحبها وأحب معها هيلفا ، تلك الفتاة الرائعة التي اد تدور « فتاة الكوخ » . ومن تلك الكأس سقته هيلفا الدواء مرتين ، فقام في المرتين من الموت . اما في المرة الثالثة ، فلم تكن هناك هيلفا لتسعفه ، ولا كأس هيلفا ليشرب منها الدواء ، فمات . والحق ان الدكتور رشيد لم يمت عندما انتابته الثالثة ، وانما كان ميتا او بحكم الميت منذ شهرين يوم حطمت الخادم الكأس بحركتها الطائشة .

وجازية في قصة « الكوكب » الم تمت هي الاخرى بالنزيف المعدي الذي ما استطاع النطاسيون ان يفهموا له سببا فيوقفوه ؟ ولكن هل ماتت جازية فعلا بالنزيف المعدي ؟ قد يكون هذا اعتقاد راوية القصة ، مدرس العلوم ذي العقل الموضوعي الذي يرى ان «اصل الكائنات ذرات جامدة لا تعقل ولا تعي ولا تحس ، وان الروح والحياة والعواطف كلها ليست الا تفاعلات تتبع قوانين مضبوطة ، بعضها معروف وبعضها في السبيل الى ان يكون معروفا ، للمادة الباردة الميتة » . ولكن هل يمكن ان تكون جازية قد ماتت بسبب مادي محض ، النزيف المعدي ، هي التي ترى « الحياة بعين الفتاة الحاملة وتتصور في كل كائن ولو كان ذرة رمل اوقطرة ماء روحا وحياة وعاطفة» (٣) ، وهي التي اصطفت لها من بين نجوم السماء كوكبا شديد الالق يلمع ما دامت حية وسيخمد نوره مع انطفاء الحياة فيها؟

ماتت جازية بنزيف المعدة . ثار داؤها في احدى ليالي الصيف فنزفت دما كثيرا ، أسود مثل طحل القهوة واحمر مثل دم الذبيحة نفسها قاءتها من فمها في منتصف الليل . ولكنها قد رأت في ذلك الماء قبل ثورة النزيف شيئا ، او قل رؤيا :

« هل تدري ماذا رأيت ؟(هكذا كتبت لصديقها مدرس العلوم ليلة وفاتها) ... رأيت نجمي اللامع ، الكوكب الذي تعرفه بالقرب من الثريا واسطع من كل نجوم السماء نورا . رأيته يتطلع الي ، يمد الي السنته النورانية فتكاد تمس اهداب عيني .. كأنه كان يدعوني. رأيته بعد الغروب وقئت الدم في منتصف الليل ، الا تظنها دعوة ؟»

وفي الليلة السابقة ليلة وفاتها الم تهجر « الفراش هائمة في سفح الجبل تتسلق صخوره فلما سئلت اجابت في لهجة بين السخرية والهذيان انها كانت تركض الى نجمها الذي لها في السماء » ؟

واذا كان الموت قد انتهى الى ان يكون هو الرؤيا الاساسية في عالم العجيلي ، فليس ذلك لان العجيلي كاتب متشائم . والحق ان مقياس التفاؤل والتشاؤم ليس من المقاييس التي يمكن ان تنطبق على عالم العجيلي . فهذا العالم هو قبل كل شيء عالم الخارق . وليس كالموت نافذة نطل منها على الخارق . ذلك ان الموت ما يزال سر الحياة الاكبر وعلامة الاستفهام الكبرى بالنسبة الى مصير كل شخص انساني . والعلم نفسه ، على الرغم مما حققه من تقدم في عصرنا هذا، يقف عاجزا عن تجريد الموت من سره ومن طابعه الخارق . ومن هنا كان الموت احد الميادين الاساسية التي ما يزال في وسع الادب ان

---

(١) : « قناديل اشبيلية » ـ دار الاداب ـ ص ٦٨ ـ ٧٤ .

(٢) : «الحب والنفس» ، ـ دار الاداب ـ ص ٤٣ .

(٣) : «الخائن» ـ دار الطليعة ـ ص ١٠٣ .

يطرقها ، بغض النظر عن مضمون هذا الادب ، عن تفاؤله او تشاؤمه ، تقدميته او رجعيته .

واذا كان الموت هو النهاية المحتومة للعديدين من ابطال العجيلي، فهذا لا يعني انه ايضا نهاية الرؤيا عن العجيلي ، بل على العكس من ذلك تماما : ان الموت عند العجيلي ليس غاية الرؤيا وانما وسيلتها ، تماما كما كان العلم والطب وسيلتها في مجموعة «بنت الساحرة» . واذا ما بدت لنا كلمة «وسيلة» ماجنة بعض الشيء بالنسبة الى الموت ، ذلك السر الاكبر ، فلنقل اذن ان الموت عند العجيلي هو « جو » الرؤيا والخارق . ومثل هذا الجو قد خلقه العجيلي هو «جو» الرؤيا والخارق . ومثل هذا الجو قد خلقه « الظهيرة » و « الطراد »و « الصيد العظيم » و (الخيل والنساء)و « على فم البئر » ، كانت البادية واسرتها واساطيرها ورمالها اللامتناهية هي المناخ الامثل للرؤيا ، وعلى وجه التحديد رؤيا ما هو خارق للطبيعة وقوانين الطبيعة . وفي قصص مثل « ساعة الملازم » و « فناديل اشبيلية » و« الليل في كل مكان » و« الحب والنفس » و « التحذير » و« لقاء كل مساء » استطاعت الرؤيا ان تتلبس الجو الذي يجعلها معقولة او قابلة للتصديق من قبل العقل بفضل التغرب والترحال في بلدان اجنبية غريبة وغير مألوفة . ولقد اخطأ بعض النقاد بحق العجيلي عندما لم يروا فيه اكثر من كاتب رحلات (١)، ولكن مثل هؤلاء النقاد قد غاب عنهم أن العجيلي انما يريد قبل كل شيء ان يخلق جوا ليتاح فيه للرؤيا ان تشرق وتحيا . ولعل العجيلي لم يوفق في خلق مثل هذا الجو كما وفق في القصص التي جمعت بين جوين متنافرين متضاربين مثل « ساعة الملازم» و« سالي » حيث يجد القارىء نفسه في انتقال مستمر بين البادية بهجيرها ورمالها اللاظية وفراغها السرابي ورجالها السمر وبين بلدان الشمال الاوروبي بصقيعها ومدنها العامرة ورجالها الشقر .

ولقد قلت في مستهل هذه الدراسة ان العجيلي انما هو خالق جو قبل كل شيء . وقد يكون من حقنا ان نرفض الرؤيا التي يريد ان يوحي بها لنا ، وقد يكون من حقنا ايضا ان نغالي في رفض هذه الرؤيا الى حد اتهامها بالغيبية وبكل ما يترتب على هذه التهمة من نتائج ، ولكننا لن نستطيع مع ذلك ان ننكر ان العجيلي قد خلق اجواء ساحرة ، متفردة ، أخاذة، واننا قد أخذنا بها بالرغم من احتجاج العقل فينا . ولهذا على وجه التحديد ، اي لان العجيلي «اخذنا» رغم ارادتنا وآرائنا المسبقة قلنا انه راوية فنان ، ومن الرواة احيانا من يفوق الشاعر والروائي والقاص ذكاء وعمقا وفنا .

جورج طرابيشي — حلب

(١) : كنت انا شخصيا من ضمن هذا البعض .

أصول الفكر الماركسي

تأليف اوغست كورنو

ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد

رحلة من داخل الفكر الماركسي وتأصيل للحركة الماركسية في الفكر الالماني قبل ماركس بدءا من الفلسفة العقلانية الى الحركة الرومانتية ثم وقفة كبيرة عند هيغل من حيث هو مصدر غنى للفكر الماركسي ثم وقفة كبيرة أخرى عند اليسار الهيغلي بصفة عامة ولودفيغ فيورباخ بصفة خاصة .. وهنا يهتم المؤلف بابراز فكرة الاغتراب عند كل من هيغل ثم موسى هس وفيورباخ ، وهي تلك الفكرة التي اثرت على ماركس الشاب وبحث في المكونات الفلسفية وتطوره الفكري حتى البيان الشيوعي بعد ان تكون رحلة الاصول قد استكملت ..

والمؤلف واحد من كبار المفكرين الماديين واستاذ للتاريخ الثقافي بجامعة همبولدت ببرلين .. وهو من اوائل من اهتموا بمشكلة الغربة عند ماركس وركز على مخطوطة ماركس الاقتصادية والفلسفية التي نشرت في الثلث الثاني من القرن العشرين وعدلت النظر الى كارل ماركس ..

الثمن ٣٠٠ ق. ل

صدر حديثا ـ عن دار « الاداب »
في طبعة جديدة